قراءة تحليلية في أسباب فشل المقاومات الشعبية الجزائرية خلال القرن 19م .

فقيقي محمد الكبير[1]

مقدمة:

المقاومات الشعبية الجزائرية المنظمة وغير المنظمة خلال الفترة مابين 1830-1916م هي أطول مقاومة مسلحة عرفتها الجزائر في تاريخها الحديث، بحيث لم تنقطع المواجهات العسكرية طوال الفترة المذكورة ، فكانت الخسائر ثقيلة للطرفين الجزائري والفرنسي ، و ابلى الريف الجزائري بلاءا عظيما في المقاومة ، كما أن السلطات الاستعمارية استنفذت برامجها ومشاريعها وخططها . ولذلك فان فشل المقاومات الوطنية خلال تلك الفترة في تحقيق السيادة الوطنية تحكمت فيه مجموعة من العوامل السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك الدينية ، سوف نتعرض لها بالتحليل في هذا البحث .

كانت مواجهة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي منذ بداية الاحتلال سنة 1830 و طوال القرن 19م حاسمة و مصيرية ، لان نجاحها أو فشلها سيكون له دور محوري في تحديد معالم مستقبل الأمة الجزائرية في ظل الهيمنة الاستعمارية خلال النصف الأول من القرن 20 م . و لذلك فان فشل تلك المقاومات الشعبية المنظمة و غير المنظمة في تحقيق السيادة الوطنية و إجلاء القوات الاستعمارية نجم عنه العديد من النتائج المختلفة على الأمة الجزائرية من جهة ، و السياسة الاستعمارية الفرنسية من جهة أخرى .

و من هنا فان دراسة الأسباب والعوامل التي أدت إلى فشل المقاومات الشعبية ، هو أمر ضروري لإدراك عناصر القوة و الضعف بالنسبة لكل طرف ، سواء الطرف الجزائري أو الطرف الاستعماري ، كما أن الحركة الوطنية الجزائرية منذ نهاية القرن 19م بدأت تعمل

---

[1] أستاذ مساعد. قسم التاريخ – جامعة بشار،الجزائر

على تصحيح الأخطاء واستدراك النقائص السابقة ، و إعداد أرضية جديدة للنضال الوطني . يمكن حصر أسباب فشل المقاومات في العناصر التالية:

– النزاعات السياسيةِ

– غياب التكافؤ العسكري و الأمني

– العوائق الاجتماعية و التعصب الديني

– المشاكل الاقتصادية

***اسباب فشل المقاومات**

1 – النزاعات السياسية:

إن سقوط الحكم التركي بالجزائر في بداية الاحتلال ، و كذلك المدن الكبرى جعل الريف الجزائري يتحمل وحده تقريبا عبء المقاومة ، و لذلك نستنتج أن سقوط القواعد الأمامية للمقاومة بسرعة ساهم في التمركز الاستراتيجي لقوات الاحتلال ، وتراجع المقاومة الوطنية نحو الداخل .

أهم عامل سياسي أفشل هذه المقاومات هو الخلافات والنزاعات بين زعماء المقاومة ، مما أفقد المقاومة عنصر الوحدة و التكتل و الشمولية ، و الإستراتيجية الموحدة ، و أوضح مثال على ذلك الخلاف بين الأمير عبد القادر و أحمد باي ، و دراسة أسباب النزاع بينهما يحتاج إلى بحث آخر (1) . و كذلك الصراع بين بقايا زعماء الإدارة التركية خاصة بين أحمد باي (الشرق) و باي تيطري " بومزراق" في الوسط من جهة و صراعه مع الباي الجديد المعين من طرف السلطات الفرنسية في عنابة و هو الباي يوسف ، إلى جانب نزاعه مع باي تونس الذي حال دون وصول الإمدادات العسكرية من قبل السلطان العثماني إلى أحمد باي . إضافة إلى النزاع الخفي بين الأمير عبد القادر و الملك المغربي حول كسب القبائل القاطنة على الحدود , و يؤكد ظاهرة النزاع حول النفوذ السياسي أحمد باي في مذكراته عندما أراد الفرنسيون أن يستبدلوه بباي آخر

فيقول: " . . . فلو كنت أعلم أنني أستطيع التفاوض مع الجيش و الاحتفاظ بمرتبتي كباي ، لحاولت أن أفعل ذلك، و لكنني عندما رأيت أنهم جاؤوا بباي ليستبدلونني و أكثر ليهينوني . . . لم اعد أرى شيئا آخر غير المقاومة النشيطة . . . "(2)

و من مظاهر هذا النزاع ما حدث ما بين " سي عزيز" (3) و بومزراق المقراني (4) بعد مقتل البشاغا المقراني ، حيث أراد بومزراق أن يستولي على جميع السلطات ، و لكن سي عزيز كان يريد أن يكون له دورا مماثلا ، و لذلك عندما فشل عزيز في تكوين مركز قوي في الجهة الغربية من وادي الصومام أعلن عن استسلامه.

و كذلك الصراع بين الأسر و العائلات الكبيرة ، مثل الصراع بين عائلتي الحداد وعائلة ابن علي الشريف (5). و الملاحظ أن سي عزيز خصص جزءا كبيرا من مذكراته لذكر تفاصيل النزاع بين العائلتين .

أما العامل السياسي الثاني في فشل المقاومات فيتمثل في حركات التمرد و العصيان ضد زعماء المقاومات ، التي كانت تتزعمها بعض القبائل و العائلات أو الطرق الصوفية ، حيث أنهكت قدرات المقاومة و أهدرت الكثير من الوقت و الجهود و الإمكانيات ، و يؤكد هذه الظاهرة صاحب تحفة الزائر: " . . . إنه كان يقوم عدة سنين بواجبا ت مضاعفة (أي الأمير عبد القادر) فكان من جهة يضع في قالب التنظيم و ا لسياسة ، و يدرس أسباب المنازعات التي كانت تحيط به ، مسكنا القلاقل و نازعا النزاع ، و مخمدا الفتن . . . " (6) ، و من أمثلة ذلك تمرد قبائل الزمالة و الدوائر على الحدود المغربية ضد الأمير ، وكذلك تمرد التيجاني بعين ماضي (الأغواط) ، كما أن بعض المنافسين له و هو محمد بن عودة زعيم قبيلة أولاد مختار ، أعلن عن عصيانه و مبايعة محمد بن عبد الله البغدادي (7) ، و حدث هذا التمرد أيضا ضد زعيم المقاومة في الشرق أحمد باي أثناء عودته من العاصمة إلى قسنطينة غداة الاحتلال ، فدبرت مؤامرة ضده و تم تعيين باي آخر، و لكنه أسترجع سلطانه من البولداش (8) .

إن الفشل الدبلوماسي لكل من أحمد باي و الأمير عبد القادر ساهم بشكل كبير في فشل المقاومة ، فأحمد باي ظل يعتمد على دولة ضعيفة (العثمانية) و ينتظر مساعدتها . أما الأمير فرغم نجاحه الدبلوماسي حتى مع فرنسا ، فقد فشل في الحفاظ على علاقاته الودية مع السلطان المغربي أنداك مولاي عبد الرحمن ، و لذلك خاض معه عدة معارك ، و فقد أهم القواعد الخلفية لتوفير السلاح و المؤونة و توطيد العلاقات الدبلوماسية الخارجية . و حدت التحالف بين فرنسا و السلطان المغربي ، و يتضح ذلك في الكتاب الذي نشره الجنرال بيجو (9) . كذلك ظهرت موجة استسلام فردية و جماعية خلال الأربعينات بشكل خاص أحبطت العزائم و الهمم ، و من أمثلة ذلك استسلام خليفة الأمير عبد القادر أحمد بن سالم في سور الغزلان أمام الحاكم الفرنسي بالمنطقة ، فضعف أمر المسلمين بالجهة الشرقية، و تحفّز رؤساء القبائل للدخول في طاعة الفرنسيين و على رأسهم ابن قاسم الزواوي ، و اقتدى به جمع غفير من الرؤساء ، فانتهز " بيجو" هذه الفرصة و أعلن سيطرته على قبائل زواوة ، ثم توجه نحو الجهات الجنوبية إلى غاية جبل عمور.

و من مظاهر هذا الاستسلام و التنازل حتى على المبادىء الدينية تصريح الشيخ عزيز الحداد أثناء دفاعه عن نفسه في محكمة قسنطينة ، حيث أكد بأن الحرب الدينية التي تزعمها ليست إلا وسيلة للعمل و ليست حربا دينية ، و أن الألقاب و العناوين التي ألصقت به مثل أمير المجاهدين ما هي إلا تصورات أفرزتها الظروف ، و نتيجة لذلك جاء فشل الإخوان الرحمانيين سريعا.

نستخلص مما تقدم : أن غياب الحكومة المركزية ، و عدم رسوخ فكرة الدولة أو الأمة الجزائرية بكيانها القومي و المستقل لدى غالبية الشعب الجزائري ، ما عدا النموذج الذي أقامه الأمير عبد القادر، يعتبر كذلك من أهم العوامل المساهمة في فشل المقاومة.

2- غياب التكافؤ العسكري و الأمني

تجمع المصادر على غياب التكافؤ العسكري بين الطرفين ، حيث يقول أحمد باي: " . . . ثم علمت أن الفرنسيين يسيرون ضدي، فتقدمت للقائهم . . . و لكن عندما لاحظت أنني لا

أقدر على محاربتهم لأن جيشهم كان أقوى ، أمرت بالانسحاب . . . " (10). و يؤكد الزهار ذلك في مذكراته " . . . و لما نزل باي قسنطينة ، كتب للباشا يخبره بقوة النصارى و بضعف جيوشنا، و يستأذنه برجوع محلة الشرق للجزائر ، فأذن له بذلك . .."(11) و كذلك محمد بن الأمير عبد القادر يوضح هذا التفوق: " . . . كان بجراءة يتلقى صدمات و هجمات عدو ، كان يفوقه جدّا، في كل الوسائط و الحيل ، التي هي من فن الحرب في أعلى طبقة . . . " (12)

إن الإستراتيجية الفرنسية كانت بعيدة المدى ، أما الإستراتيجية التركية و الجزائرية فكانت تعتمد على ردود أفعال مباشرة ضد غزو أجنبي ، دفاعا عن الأرض و الوطن و الممتلكات و المقدسات و الحرمات . لقد سيطر الفرنسيون على المدن الكبرى ، فيما تجمع الجزائريون في الأرياف و المناطق الداخلية و الجبلية ، فعندما سيطر الفرنسيون على عنابة ضعف مركز أحمد باي ، و كذلك بالنسبة للأمير عندما استولى الفرنسيون على وهران .

أهم نجاح حققته الإستراتيجية الفرنسية هو استغلال الخلاف بين الأمير و أحمد باي ، حيث تم إسقاط قسنطينة بعد عقد هدنة مع الأمير نقضتها فرنسا عندما استكملت الاستعداد العسكري ، كما شهدت الإستراتيجية الفرنسية تطورا هاما مع مجيء الجنرال بيجو متمتعا بكامل الصلاحيات، و تطبيقه لسياسة الأرض المحروقة ، و الاحتلال الشامل ، مما أدى إلى تضعضع الوضع العسكري للأمير عبد القادر. هذه الإستراتيجية كانت تعتمد على الخطة التالية :

- غلق الحدود المغربية على القبائل لمنع تسرب الأسلحة .
- استخدام حرب الإبادة في المناطق التي تخضع لسلطة الأمير.
- احتلال عاصمة الأمير (معسكر) ثم تلمسان و سعيدة. . . و التوسع نحو المناطق الصحراوية و بالتالي تطويق الأمير من جميع الجهات .
- الضغوط على الملك المغربي لتغيير موقفه من مقاومة الأمير

و هكذا لم يستطع الأمير إيجاد حلول مناسبة لمواجهة هذه الاستراتيجية الجديدة ، خاصة بعد استمرار تمرد القبائل و استسلام أتباعه ، و عدم إستقراره في قاعدة ثابتة ، حيث أصبحت عاصمته (الزمالة) متنقلة. أما أحمد باي فقد ظل يعتمد على الطريقة الدفاعية ، و التحصن وراء أسوار قسنطينة ، و كان يعلق أملا كبيرا على نجاح المفاوضات مع الفرنسيين ، حتى انسحابه نحو الصحراء بعد سقوط قسنطينة سنة 1837 م كان بضغط من شيخ العرب و خاله بوعزيز بن قانة ، حيث يقول في هذا الصدد : "... لقد اتبعت رأي بوعزيز و كان ذلك هو مصابي الأعظم."(13)

اما في مقاومة الباشاغا ا لمقراني سنة 1871 ، فالواضح أن المقراني لم يتزعم هذه الثورة منذ بدايتها ، فلقد انطلقت في يناير 1871 ، بينما تزعمها في 16 مارس 1871، و سرعان ما أستشهد في 05 ماي 1871 أي بعد أقل من شهرين من تزعمه للمقاومة ، ثم ظهرت قيادة ثنائية غير متجانسة مثلها بومزراق المقراني شقيق الباشاغا و الشيخ عزيز ابن الشيخ الحداد.

هذه القيادة الجديدة ارتكبت خطأين فادحين على رأي المؤرخ أبو القاسم سعد الله و هما:

– إتباع أسلوب المواجهة المكشوفة

– توسيع نطاق المقاومة نحو المناطق الصحراوية ، حيث قلة المؤونة و الماء و السكان" (14)

من خلال هذه المعطيات يتضح التباين و التفاوت الواسع بين الإستراتيجية و الإمكانيات العسكرية الفرنسية ، و ردود الفعل الوطنية ، مع أننا لا يمكن أن نغفل إستراتيجية الأمير عبد القادر في تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة ، و جيش نظامي متماسك و هذا باعتراف القيادات العسكرية الفرنسية نفسها (15) .

من حيث الجانب الأمني و المخابراتي ، استطاعت القوات الفرنسية أن تخترق صفوف جيش الأمير و تكشف خططه و أسراره الحربية ، و ذلك من خلال شخصية "ليون روش" الذي

انضم إلى جيش الأمير ما بين 1837 – 1839 (16)، وتحوّل إلى مستشار له ، و أستطاع أن يكشف أسراره العسكرية و نقاط القوة و الضعف في جيشه.

3 – العوائق الاجتماعية والاقتصادية:

إن طبيعة المجتمع الجزائري خلال القرن 19م و طبيعة المؤ سسات الدينية التي كانت تحكمه ساهمت بشكل بارز في إنتاج نقاط الضعف أو القوة في الوقت نفسه . هذا المجتمع كان مفككا نتيجة عدة نزاعات قبلية و إقليمية و عائلية و مذهبية . و من مظاهر ذلك القطيعة الواضحة بين عناصر السكان خاصة بين المجتمع في المدينة و الريف، و بين العنصر التركي و الكرغلي و كذلك الأهلي ، إلى جانب دور الأقليات مثل اليهود ، وكذلك غياب طبقة غنية و وسطى حقيقية وطنية في المدن ، و من جهة أخرى النزاع الديني المذهبي و الطرقي ، و انتشار بعض المشاكل الاجتماعية مثل المرض و المجاعة.

فالنزعة القبلية تجلت في تمرد بعض القبائل على سلطة زعماء المقاومات ، فالأمير عبد القادر أهدر معظم جهده و وقته في إخضاع القبائل لسلطته ، أما النزعة الإقليمية فتتجلى في الصراع بين أحمد باي و الأمير عبد القادر ، إلى جانب الصراع العائلي الذي تجلى في مقاومة 1871، بينما التعصب الديني قد برز في ال صراع بين الطرق الصوفية مثل نزاع الأمير الذي ينتمي إلى الطريقة القادرية مع أتباع الطريقة التيجانية في عين ماضي (17) من جهة ، و أتباع الطريقة الدرقاوية على الحدود المغربية من جهة أخرى ، و ظهر هذا الصراع أيضا خلال مقاومة 1871، فالزاوية الرحمانية كانت منقسمة على نفسها ، حيث أن زاوية – طولقة – رضيت منذ عام 1844 بالتعاون مع السلطات الاستعمارية ، أما زاوية — صدوق– فكان لها اتجاه مستقل حيث يمثل شيخها و أتباعها الطبقة الشعبية البسيطة ، و صلاتها بالاحتلال تكاد تكون منعدمة ، لأنها لم تكن أسرة نبيلة مثل أسرة باشآغا — شلاطة– التي تتصف بالكبرياء و التعالي.

و كذلك الخصومة التقليدية الشديدة بيت زاويتي صدوق و شلاطة و تبادل الطرفين التهم و السباب و الشتائم ، فابن علي الشريف كان يظهر تكابره نظرا للمنصب الإداري الذي كان

يشغله كباشاغا و يعرّض بعائلة الحداد ، و يقول بأنها لا أصل لها ، و أن أبناءها من الحدادين ، و عزيز يرد عليه في مذكراته و يتهمه بالمقابل بأنه لا أصل له و لا نسب ، رغم ادّعائه بانتسابه إلى الأشراف الأدارسة.

أما عن دور الأقلية اليهودية ، فيقول أحمد باي " . . . و لقد علمت أن اليهود على سبيل المثال قد اغتنموا أوقات الاضطراب و الفوضى، التي لا بد منها أثناء جميع الهجومات ، ليستولوا على الأشياء الثمينة التي كانوا يعرفون أمكنتها الخفية ، و من جملة من نهبوا ابن عيسى فإنه قد فقد كل ما يملك تقريبا . . . " (18) و مثل هذا العمل حدث في بقية المدن الجزائرية الكبرى.

هناك بعض المشاكل الاجتماعية مثل الجوع و المرض أسهمت في إضعاف المقاومات إذ يشير أحمد باي أثناء حصار قسنطينة إلى انتشار مرض خطير " . . . أصاب قسنطينة مرض مريع هو الريح الأصفر(19) و هو مرض كان يجعل من الرجل الصحيح في لحظة جثة هامدة . . . "(20) إلى جانب المجاعات مثل مجاعة (1867-1869) ، التي جعلت الحاج المقراني يقدم كل أمواله لمساعدة المتضررين ، بل أقترض و راهن ممتلكاته ، و تسبب ذلك في ضعف موارده أثناء المقاومة .

من الناحية الاقتصادية كان الريف الجزائري مركز الثقل الاقتصادي رغم النشاط التجاري و الحرفي للمدن ، و يؤكد ذلك حمدان خوجة في مذكراته : " . . . فهؤلاء البدو و القبائل أنفسهم هم القاعدة الأساسية لكل ثروة في الأيالة الجزائرية و عليهم يتوقف السلم و الهدوء في هذا البلد . . . " (21) و لذلك صمد الريف في المقاومة أكثر من المدينة ، إلا أن طول ا لمقاومة و تفوق الإمكانيات الاقتصادية للمحتل الفرنسي جعل الريف يستنفد قدراته الاقتصادية ، خاصة عندما أسرعت فرنسا على المراكز الإستراتيجية للتبادل التجاري الخارجي(العاصمة – عنابة- وهران . . .) ، و من جهة أخرى لم تكن الهوامش الصحراوية مركز إمداد اقتصادي لمقاومات الشمال.

إن هذه المقاومات على كثرتها و تفاوته ا في الأهمية و الصدى لم يكتب لها النجاح لأسباب عديدة نجملها فيما يلي:

- ًلم تكن هناك تعبئة وطنية ، أو تنظيم وطني أو إقليمي ، فقد كانت القبيلة أو القبائل المتجاورة تثور بمجرد أن تلحقها إهانة من طرف الجيش الفرنسي ، أو من طرف الحاكم بالمنطقة .

- الانتفاضات في غالب الأحيان هي استجابة تلقائية للدعوة التي يوجهها الزعماء الدينيين أو رؤساء القبائل إلى الجهاد ، دون معرفة الجماهير لأسباب الانتفاضة و لا حقيقة الدعوة إلى الجهاد، و إنما استجابت ثقة منها في علمائها و زعمائها ، و رغبة منها في الجهاد الذي لا يعتبر جهادا رسميا إلا بموافقة العلماء .

- ضيق الرقعة الجغرافية التي تقع فيها الانتفاضة ، مما يسهل مهمة الجيش الفرنسي في إخمادها.

- الارتجال أو التلقائية في تفجير الانتفاضة ، لا تسمح لقادة المقاومة بالاستعداد الكافي و التنظيم المحكم و تحديد الهدف من العملية.

- انعدام التنسيق بين زعماء المقاومة و القبائل الثائرة " (22)، بل سيادة النزاع و الصراع محل التعاون و التضامن .

رغم أن هده المقاومات فشلت في تحقيق السيادة الوطنية خلال القرن 19م وبداية القرن 20 م إلا أنها خلفت نتائج عظيمة على مستوى السياسة الاستعمارية من جهة والمقاومة الوطنية من جهة أخرى :

***على مستوى السياسة الاستعمارية:** لقد فوجئ الفرنسيون بالمقاومة الجزائرية، التي أثرت في نفوس القادة الفرنسيين أمام البرلمان و الشعب الفرنسي، الأمر الذي أدى بالكثير من القادة إلى مراجعة مواقفهم و التشكيك في قدرة فرنسا على مواصلة احتلالها لمناطق أخرى ، فظهر ذلك في المناقشات التي جرت حول فكرة أيكون من الأفضل الاحتفاظ بالجزائر أم التخلي

عنها، و في تطبيق بعض الأساليب اللينة بادئ الأمر لتثبيت أقدامهم مثل الإبقاء على بعض المناهج التي كانت مطبقة في العهد التركي كمنصب آغا العرب .

و في وسط البرلمان الفرنسي ارتفعت الأصوات المعارضة لفكرة التوسع داخل البلد و لبقاء الجيش الفرنسي في الجزائر، و نذكر من بين المعارضين السيد : آلا ر M/ Allar الذي نشر مقالا في أول سبتمبر 1830 أعلن فيه أن مصير فرنسا في الجزائر سيكون مثل ما كان في المستعمرات السابقة، وانها تضيع وقتها و اقتصادها من أجل أسباب لا نهاية لها . لقد نتج عن هذه المواقف الضاغطة أن أرسلت الحكومة الفرنسية لجنتين للتحقيق، و أن يتداول على القيادة العامة بالجزائر ست جنرالات من جويلية 1830 إلى 1833 و أن تتردد الحكومة الفرنسية مدة أربع سنوات في تحديد نوع الحكم الذي يناسب الجزائر.

رافقت عملية تشجيع الهجرة الأوروبية إلى الجزائر، عمليات أخرى مكملة لها، و هي منح هؤلاء المهجرين تسهيلات لتملك الأراضي، حيث سيطرت الإدارة الفرنسية على أملاك الأوقاف الدينية الخيرية، و استولت على أملاك الذين اختاروا الهجرة إلى خارج الجزائر . . . كما استولت أيضا على أراضي القبائل التي كانت تشارك في القتال ضد الفرنسيين، و أتبعت سياسة تهدف إلى حصر القبائل العربية و إبعادها عن الأراضي الجيدة ، و كان الجيش هو الأداة في تنفيذ هذه السياسة، فقد شق الطرق و أستصلح الأ راضي و أنشأ القرى ، و تمكن خلال ثلاث سنوات من 1842 – 1845 من إقامة 35 مركز للاستيطان و منح المعمرين 105000 هكتار (23) .

لقد ظلت الإدارة الاستعمارية عسكرية منذ بداية الاحتلال 1830 و إلى غاية عام 1870، من اجل

المقاومات الشعبية ، و في ظلها تم إلحاق الجزائر بفرنسا إداريا منذ عام 1834 . و يشرف على

إدارة البلاد حاكم عام عسكري مسؤول أمام وزير الحرب في الحكومة الفرنسية، يساعده قواد للنواحي الثلاث: الناحية الوسطى مقرها الجزائر العاصمة – الناحية الشرقية (قسنطينة) – الناحية

الغربية (وهران). و كل قائد ناحية كان مسؤولا عن قيادة ناحيته التي كانت مقسمة هي الأخرى إلى مجموعة أقسام يخضع كل قسم منها لضابط يأتمر بأوامر مجموعة من الموظفين الجزائريين بألقاب إدارية قديمة هي: الخليفة ، الآغا ، القايد ، الشيخ .و كانت تسير تلك النواحي و الأقسام بواسطة المكاتب العربية، التي من أبرز مهامها الإشراف على شؤون الأهالي ، و كانت بمثابة حكم عسكري ، بينما المستوطنون كانوا يخضعون لنظام مدني، كل هذه التنظيمات الإدارية هدفها مراقبة و متابعة المقاومات الشعبية و القضاء عليها و عزل الأهالي عنها ." (24)

و في ظل هذا النظام الإداري تأسست أنظمة فرعية مثل نظام القضاء الذي كان يعتمد على قاعدة الغالب، من خلال أسلوب العقوبات الجماعية ، إضافة إلى نظام الضرائب و جبايتها من الأهالي و كان يشكل موردا هاما للخزينة الاستعمارية .

في عام 1870 انتقلت السلطة في الشمال من الإدارة العسكرية إلى الإدارة المدنية، و"شهدت هذه المرحلة توسع حركة الاستيطان ، فخلال الفترة ما بين 1871 – 1895م تم بناء 248 مركز استيطاني جديد، و منحت للمستوطنين حرية واسعة بالتصرف في شؤون الجزائر، و بدأوا يعملون على إفراغ الأراضي من أهلها وتحويل المناطق العسكرية إلى الحكم المدني و تطبيق القوانين الفرنسية" (25)

كما توسعت حركة التنصير ، التي حمل لوائها الآباء البيض و بعض السياسيين مثل لافيجري و غيره . . . و محاولة إبعاد الإسلام ، باعتباره إحدى الركائز الأساسية للكيان الجزائري و المحرك الرئيسي للمقاومات الشعبية.

***على مستوى المقاومة الوطنية :** خلال المرحلة الأولى من المقاومة المنظمة استطاعت القوات الفرنسية أن تقضي عليها، لذلك " تغير أسلوب المعارك و المقاومة حيث أصبحت تجري على غير النمط الذي ألفه الفرنسيون حيث أخذت تتحول تدريجيا نحو المن اطق الداخلية الوعرة كما انتقلت من حرب بين دولتين و جيشين نظاميين إلى حرب شعبية من النوع الذي يطلق عليه حاليا (حرب العصابات) يقودها زعماء محليون لهم ملامح واضحة مثل الأمير و أحمد باي . . . تخلقهم

ظروف الصراع. فيجيئون و يذهبون دون أن يعرف الفرنسيون أصله م و لا مدى قوة نفوذهم بين القبائل بل حتى أسمائهم الحقيقية فكانوا يشتهرون بأسماء مثل بومعزة ، بوبغلة ... مما خلق صعوبات كبيرة للإدارة الفرنسية " (26)

عندما سقطت معاقل المقاومة في الشمال بدأت تبحث عن قواعد جديدة في الجنوب فالأمير عبد القادر أخضع قبائل الأغواط و أتباع الطريقة التيجانية ،كما أتصل بقبائل أولاد سيدي الشيخ و طلب منهم المؤازرة حتى يجد منفذا في الصحراء بعد الحصار الذي ضرب عليه في الحدود الغربية و السواحل ، و تراجع نفوذه في الوسط و الشرق.. كذلك أحمد باي بعد سقوط قسنطينة في الحصار الثاني 1837 التجأ نحو أخواله في منطقة بسكرة ثم إلى قبائ ل الأوراس. و لكنه لم ينجح في إستمالة هذه القبائل إلى جانبه نتيجة الحصار الشديد للقوات الفرنسية على هذه المناطق.

بعد فشل مقاومة الحاج المقراني سنة 1872، و النتائج المترتبة عن ذلك مثل السيطرة على الممتلكات و سن قوانين جديدة و إقر ار قانون التجنيد و الأهالي تراجع دور الريف في الشمال، فشهدت المقاومة الوطنية تطورا هاما في أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن الع شرين حيث استعادت المدينة الجزائرية نشاطها ، فظهرت المقاومة الثقافية ثم السياسية و قد كان للمهاجرين الجزائريين دورا أساسيا في استعادة هذا النشاط.

تقييم عام : إن فشل المقاومات الجزائرية، حسمت الصراع نسبيا لصالح الاحتلال الفرنسي الذي جاء يحمل مشروعا استعما ريا بعيد المدى يستهدف القارة الإفريقية كلها من خلال التوسع و فتح مناطق استثمار اقتصادي جديدة و مراكز لنشر الدين المسيحي، مدركا لطبيعة الصراع التاريخي الحضاري بين الشرق و الغرب، وبا لموازاة وجد مجتمعا يزخر بكل إمكانيات التحضر و المواجهة ولكنه قابعا في مجاله الجغرافي، مقتنعا بما أحرزه من مكاسب غير متفتح على العا لم الخارج ي.

لم تصمد الإدارة العثمانية حارسة السواحل الجزائرية أمام الاحتلال لأنها كانت تعيش قطيعة حقيقية مع الشعب الجزائري رغم التواصل الديني، و لم تدرك الأبعاد الحقيقية للحملة الفرنسية ، و

اعتبرتها كغيرها من التحرشات الأوروبية السابقة، كما أنها ك انت مرتبطة بضعف عام للدولة العثمانية، رغم أن ما بقي من تنظيماتها ساهم بفعالية في المقاومة الوطنية.

لقد سقطت المدن الجزائرية بشكل سريع خاصة العاصمة لأنها كانت تفتقر إلى القيادة الحقيقية المترسخة في أوساط الشعب و القادرة على تعبئته و تجنيده ضد المحتل، عكس الريف الجزائري الذي كان يملك قيادات محلية تقليدية استطاعت أن تخلق مقاومة حقيقة ، بل جسدت مشروع الدولة الجزائرية في العصر الحديث.

إن سقوط المدن يرتبط بطبيعة الطبقة الغنية المحلية غير المتجانس ة التي تخاذلت في البداية أمام الاحتلال، لأنها لم تكن تدرك أبعاد و مخاطر الحملة الفرنسية و أرادت أن تستغل الريف في المقاومة حفاظا على إمتيازاتها الاقتصادية ، و مع ذلك فإن أعيان الريف و أغنياء المدن أقحموا في المقاومة مع تطور الأحداث، فأحمد باي كان يعتمد بشكل أساسي على دعم هذه الطبقة الغنية في المدن الشرقية ، بينما الأمير عبد القادر عمل على تق ويض أركان هذه الفئة خاصة طبقة أعيان الريف و القبائل المخزنية ، مستعينا أكثر بفكرة البيعة و الجهاد و تفعيل المبادىء الدينية الإسلامية . ولعل الدور البارز لهذه الفئات الاجتماعية تجلى بوضوح في ثورة عام 1871.

*** هوامش البحث :**

1– تفاصيل الخلاف في كتاب ل : ناصر الدين سعيدوني : دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائ ر ،الفترة الحديثة والمعاصرة ، ج2 ، المؤسسة المؤسسة للكتاب ،الجزائر 1988 ،ص، 205- 229.

2- أحمد باي، حمدان خوجة ، بوضربة: مذكرات ،تحقيق محمد العربي الزبيري ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1981.ص ، 54 – 55.

3- "سي عزيز": هو ابن الشيخ الحداد شيخ الطريقة الرحمانية تزعم الزاوية الرحمانية بعد أبيه

4-بومزراق هو شقيق الحاج أحمد المقراني تزعم المقاومة بعد استشهاد أخيه في 05 ماي 1871.

5- يحي بوعزيز : وصايا الشيخ الحداد و م ذكرات ابنه سي عزيز . المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر: 1989، ص 140 - 144

6- محمد بن الأمير عبد القادر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر ، شرح و تعليق:ممدوح حقي،ط2، دار اليقظة العربية للتأليف و النشر، بيروت، 1384هـ-1964، ص، 283.

7- محمد بن عبد الله : قدم من بغداد و زعم أنه من درية الشيخ الصوفي عبد القادر الجيلاني و أدعى أيضا أنه المهدي المنتظر.

8- البولداش: فرقة عسكرية تركية لا تخضع إلا لسلطة الداي.

9- الكتاب موجود في تحفة الزائر... ، ص ،482 ، 484 .

10- مذكرات أحمد باي: ص ،47.

11- أحمد الشريف الزهار، المذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني،ط2، الجزائر 1980،ص،172 .

12- تحفة الزائر: ص 283.

13- مذكرات أحمد باي: ص 77

14-سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2 ، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1983 ، ص، 54 .

15- اعتراف الحاكم العسكري بوهران، تحفة الزائر : ص، 410.

16- مناصرية ، يوسف ،مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب 1832 -1847 ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1990. ص،37 ، 44.

17- الأمير عبد القادر ، المذكرات ،تحقيق مجموعة من الأساتذة ، دار الأمة ، ط2 ،الجزائر،1995، ص، 111.

18- مذكرات احمد باي: ص 76 .

19- الريح الاصفر ،ما يعرف حاليا بمرض الكوليرا.

20- مذكرات أحمد باي: ص 39.

21 – المصدر نفسه ، ص، 148.

22 – محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية 1830 – 1954 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، ص 67 – 68.

23- Charles-robert-Ageron: Histoire de l'Algérie contemporaire (Qui sois je) P.U.F Paris 1977 : P: 9

24- صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر ، دار العلوم للنشر و التوزيع ،ط1، 2003/2002 ، ص، 196

25- المرجع نفسه: ص 210 - 211 .

26- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،الجزائر، ط2، 1982، ص ،288.

قائمة المصادر والمراجع .

المصادر

1- الأمير عبد القادر – المذكرات – تحقيق مجموعة من الأساتذة – دار الأمة – ط2 ،الجزائر،1995.

2-الباي ، أحمد ، حمدان خوجة- بوضربة: **المذ**كرات ،تحقيق محمد العربي الزبيري ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ،1981.

3- الحداد،الشيخ ، وصاياهو مذكرات ابنه سي عزيز.جمع وتحقيق بوعزيز يحي، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر: 1989

4- الزهار، أحمد الشريف - المذكرات- تحقيق أحمد توفيق المدني-ط2- الجزائر، 1980.

5-محمد بن الأمير عبد القادر : تحفة الزائر في تا ريخ الجزائر و الأمير عبد القادر ، شرح و تعليق:ممدوح حقي، ط2، دار اليقظة العربية للتأليف و النشر، بيروت 1384هـ- 1964 .

المراجع :

6-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط2، 1982

7-سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2 ، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983.
8-سعيدوني، ناصر الدين دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر ، الفترة الحديثة والمعاصرة ، ج2 ، المؤسسة المؤسسة للكتاب ،الجزائر ،1988.
9-صالح ، فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر ، دار العلوم للنشر و التوزيع ، ط1 ،2003/2002 .
10-العلوي ،محمد الطيب، مظاهر المقاومة الجزائرية 1830 ، 1954 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، بدون تاريخ.
11-مناصرية، يوسف : مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب 1832 – 1847 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1990.

المراجع الفرنسية:

-12 Charles-robert-Ageron: Histoire de l'Algérie contemporaire (Qui sois je)

P.U.F Paris 1977